قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾

دعا السّياق من ذي قبل النّاس جميعاً، بني إسرائيل على جهة الخصوص إلى اتّباع ملّة إبراهيم حنيفاً، ودعت الآية الكريمة السّابقة النّاس إلى الحج إلى بيت الله تعالى الحرام، وهو الرّكن الخامس من أركان الاسلام، وبيّنت أن من كفر فإنّ الله سبحانه وتعالى غنيّ عنه، وهاهي ذي الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تتحدّث عن بعض هؤلاء الكافرين الّذين تولّوا واستغنى الله، والله غنيّ حميد. وهذا الفريق من أهل الكتاب. ولازال الخطاب متّجهاً إلى المصطفى ﷺ «قل» وانظر إلى الطريقة الكريمة الّتي تخاطب فيها الآية الكريمة اليهود والنّصارى. إنّها تخاطبهم بكونهم أهل الكتاب السّماوي الّذي أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السّلام في حقّ اليهود، وإلى عيسى عليه السّلام في حقّ النّصارى، وفي هذا التكريم في الخطاب تنبيه إلى المطلوب من أهل الكتاب بأن يؤمنوا بكلّ تعاليم الكتابين السّماويّين، ومن هذه التعاليم تصديق خاتم النبيّين واتّباعه ﷺ وهو الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل. إنّ كلًا من اليهود والنّصارى قاموا بعكس المطلوب منهم فكفروا بدل الإيمان وعملوا بعكس ما ثبت لهم صدقه وصحته من آيات الله تعالى البيّنات.

والآية الكريمة في إنكارها على القوم كفرهم بآيات الله تعالى تعرض هذا الإنكار في طريقة كريمة وأسلوبٍ لطيف ألا وهو أسلوب الاستفهام الإنكاري: «قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله»؟ وتختم الآية الكريمة بتقرير الحقيقة الّتي غفل عنها أهل الكتاب والّتي لورعوها حقّ رعايتها لما كفروا وهي كونه جلّ وعلا شهيداً على ما يعملون. إنّ أهل الكتاب لو قدروا الله تعالى حقّ قدره لبادروا إلى الإيمان وهجروا الكفر ودخلوا في دين الاسلام. وانظر إلى صيغة المبالغة «شهيد» المعمّقة للمعنى المقصود المقوّية له.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

تبغونها : البَغْي طَلَبُ تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحرَّى ، تَجاوَزَهُ أو لم يتجاوزْه . فتارةً يُعْتَبَرُ فى القَدْر الّذي هو الكميّة ، وتارةً يُعْتَبَر فى الوصف الّذي هو الكيفيّة . يقال : بَغَيْتَ الشّيءَ إذا طَلَبْتَ أكثر ما يجب وابتغيتَ كذلك . قال عزّ وجلّ : لقد ابْتَغَوُا الفتنة من قبل .وقال تعالى : يبغونكم الفتنة (١).

عوجا : العِوج بكسر أوّله :الأود فى الدّين والكلام . والعَوج بفتح أوّله : الميل فى الحائط والقناة وكلّ شيءٍ منتصبٍ قائم (٢)

وأنتم شهداء :الشُهداء جمع شهيد . وهو الأمين فى الشّهادة . والشّهود جمع شاهد (٣) والشّهود والشّهادة الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة . والشّهادة قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بَصر . ويقال : شهِدت كذا :أي حضرته . وشهدت على كذا (٤)

تسير الآية الكريمة فى صدرها وفى استفهامها الإنكاريّ على غرار الآية الكريمة السّابقة ، فلا زال الخطاب متّجهاً إليه ﷺ ، ولا زال الاستفهام الإنكاريّ متّجهاً إلى عملٍ من أعمال أهل الكتاب . والملاحظ أنّ العمل الّذي تُنْكره الآية الكريمة على أهل الكتاب يزيد سوءًا عن العمل السّابق لأنه مبنيٌّ عليه . فإذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد وقفت عند كفر أهل الكتاب بآيات الله تعالى ، فإنّ الآية الكريمة هنا تجاوزت إلى صدّ أهل الكتاب النّاس عن سبيل الله تعالى المتمثّل فى دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده . وتذكّرنا الآيتان الكريمتان بمثل قوله تعالى فى سورة النّساء (١) : « إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالًا بعيداً » وقوله تعالى فى سورة النحل (٢) : الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانو يفسدون ».

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني ص ٥٥
(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /١٦
(٣) القاموس المحيط «شهد»
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٢٦٧،٢٦٨

والآية الكريمة لا تكتفي بتقرير الصدّ مجرّداً ، إنّما تبيّن حرص أهل الكتاب على صرف المؤمنين عن إيمانهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى والعمل الجادّ من أجل أن يرتدّ المسلمون – لا سمح الله – عن دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده . والآية الكريمة تبيّن أنّ أهل الكتاب بهذا النّوع من الصدّ عن سبيل الله تعالى يبغون السّبيل معوجّة والطّريق ملتوية .وانظر إلى جملة « تبغونها » ذات العلاقة بالبغي والطغيان والّتي تدلّ على معرفة أهل الكتاب السّبيل المستقيمة ، وعلى هجرهم هذه السّبيل ، وصدّهم الآخرين عنها عمداً وإصراراً وبغياً بقصد تحويلهم عن السّبيل المستقيمة الّتي يبغضونها إلى السّبيل المعوجّة الّتي توافق نفوسهم المعوجّة . والآية الكريمة تؤكّد بغي القوم وطغيانهم عن طريق تأكيد علم القوم الكامل بما يعملون من كفرٍ وصدٍّ عن سبيل الله تعالى وحرصٍ على صرف المؤمنين عن سلوك سبيل الحقّ والخير ، بحيث إنّ القوم تنزّلهم الآية الكريمة منزلة الشهداء الّذين بلغوا الغاية فى مشاهدة القضيّة الّتي حضروها وأحاطوا بها علماً فالواحد منهم بمنزلة الشّهيد ، هكذا في صيغة المبالغة الّتي تذكّرنا باللّفظة ذاتها فى الآية الكريمة السّابقة فى حق الذّات العليّة . وليس وراء لفظة الشهيد وراء فى الدّلالة على علم القوم التّامّ بالعمل الّذي يقومون به عن عمدٍ وسبق إصرار وإحاطةٍ بملابساته وبعواقبه .

ومع كلّ هذه الأعمال السّيّئة والنّوايا الخبيثة فإنّ الآية الكريمة تخاطب أهل الكتاب فى الطّريقة الكريمة ذاتها وتقرّر فى نهايتها أنّ الله سبحانه ليس بغافلٍ عمّا يعملون وسيجزيهم على سوء أعمالهم ونيّاتهم .

(١) الآية ١٦٧

(٢) الآية ٨٨

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

سبب النزول :

يقول الطّبريّ (١) :«وقد ذكر أنّ هاتين الآيتين من قوله قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والآيات بعدهما إلى قوله : وأولئك لهم عذابٌ عظيم ، نزلت فى رجلٍ من اليهود حاول الإغراء بين الحيّين من الأوس والخزرج بعد الإسلام ليراجعوا ماكانوا عليه فى جاهليّتهم من العداوة والبغضاء فعنّفه الله بفعله ذلك وقبّح له ما فعل ووبّخه عليه ووعظ أيضاً أصحاب رسول الله ﷺ ونهاهم عن الافتراق والاختلاف وأمرهم بالاجتماع والائتلاف .... عن محمّد بن إسحاق .... قال مرّ شأس بن قيس ، وكان شيخاً قد عسا (٢) في الجاهليّة عظيم الكفر شديد الضّغن على المسلمين شديد الحسد لهم ، على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلسٍ قد جمعهم يتحدّثون فغاظه ما رأى من جماعتم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الّذي كان بينهم من العداوة فى الجاهليّة فقال : قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة (٣) بهذه البلاد والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتًى شاباً من اليهود وكان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكّرهم يوم بُعاث (٤) وما كان قبله وأنشدهم بعض ماكانوا تقاولوا فيه من الأشعار . وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظّفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلّم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتّى توائب رجلان من الحيّين على الرّكب ، أوسُ بن قيظيّ أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس وجبّارُ بن صخر أحد بني سَلِمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا ، السّلاحَ السّلاح ، موعدكم الظّاهرة والظّاهرة الحرّة ، فخرجوا إليها وتحاور النّاس فانضمّت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم الّتي كانوا عليها فى الجاهليّة . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتّى جاءهم فقال : يامعشر المسلمين : الله الله ، أبدعوى الجاهليّة وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /١٦ ومابين المعقوفين [ ] زيادة ضروريّة

(٢) عسا الشيخ : كبر وولّى .

(٣) قَيْله ، بفتح القاف وسكون الياء اسم أمّ الأوس والخزرج الّتى إليها ينتسبون فيقال : ابنا قيلة

(٤) بُعاث بالباء المضمومة والبعين المهملة .

إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهليّة واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفّارا . فعرف القوم أنّها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوّهم فألقوا السّلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرّجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شاس بن قيس وما صنع ، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع [قل] يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون . [قل] يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً الآية . وأنزل الله عزّ وجلّ فى أوس بن قيظى وجبّار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الّذين صنعوا ما صنعوا ممّا أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهليّة : يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين أتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين إلى قوله : وأولئك لهم عذاب عظيم »

والآية الكريمة يمكن أن ينظر إليها من زاوية سبب النّزول ، فثمّة تحذيرٌ للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم من طاعة فريقٍ من يهود المنطقة الحريصين على أن يردّوهم بعد إيمانهم كافرين . وانظر إلى رغبة هذا الفريق من اليهود الجامحة . أن يتحوّل الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم من النّقيض إلى النّقيض من الإيمان الكامل إلى الكفر الخالص . فكيف بغير الصّحابة .

والآية الكريمة يمكن أن ينظر إليها وراء ذلك من زاوية سياق الآيات الكريمات ومن زاوية ما اتفق عليه العلماء من كون العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . وعليه يكون فى الآية تدرّج إلى أعلى بعد الدّرجتين السّابقتين فى الآيتين الكريمتين . الدّرجة الأولى تقرير كفر أهل الكتاب بآيات الله تعالى . والدّرجة الثّانية صدّهم عن سبيل الله ومنعهم عباد الله تعالى من الدّخول في دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده ومن وسائل ذلك كتمانهم نعت المصطفى ﷺ فى كلّ من التّوراة والإنجيل ، وادّعاء كفّار اليهود مثلًا أنّ دين كفّار قريش خيرٌ من دين محمّد ﷺ وقد لعنهم القرآن الكريم بسبب كذبهم وبيّن دافع الحسد الّذي يبعثهم على مثل هذا الكذب . قال تعالى (١) : « ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلا . أولئك الّذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا .

(١) سورة النّساء ٥١ ــ ٥٥

أم لهم نصيبٌ من المُلْك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا . أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنّم سعيرا » والدّرجة الثّالثة حرصهم على أن يرتدّ المؤمنون كفّارا . وإذا كان أهل الكتاب لم يتورّعوا عن ارتكاب هذه المحاولة الحمقاء مع أصحاب المصطفى ﷺ الّذي لا زال يعيش بين أظهر الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فهل سيتورّعون عن ارتكاب ذلك مع من سواهم ؟

والآية الكريمة تحذّر المؤمنين من طاعة هذا الفريق من أهل الكتاب . إنّ طاعة القوم هي السّبب فى كلّ الويلات الّتي تحلّ بالمسلمين من جرّاء اختلافهم وتفرّقهم الّلذين يعمل أهل الكتاب جاهدين من أجل تعميقهما وترسيخهما . ويظلّ أهل الكتاب يستغلّون طاعة المؤمنين لهم أسوأ استغلالٍ وأبشعه حتّى يردّوا المسلمين بكلّ الوسائل كفّارا ، فلا يرضى أهل الكتاب سوى أن يعتنق المؤمنون اليهوديّة كي يرضى عنهم اليهود ، أو أن يعتنق المؤمنون النصرانيّة كي يرضى عنهم النّصارى . وقد قال عزّ من قائل (١) : «ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي الله بأمره . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير » وقال تعالى (٢) : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ، قل إنّ هدى الله هو الهدى ، ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير »

قال تعالى (٣) : « فاعتبروا يا أولى الأبصار »

(١) سورة البقرة ١٠٩

(٢) سورة البقرة ١٢٠

(٣) سورة الحشر ٢

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

ومن يعتصم بالله : الاعتصام : التمسّك بالشيء والاستمساك به (١) وأصل العَصْم المنع ، فكلّ مانع شيأً فهو عاصمه ، والممتنع به معتصمٌ به (٢) ومن يعتصم بالله : ومن يتعلّق بأسباب الله ويتمسّك بدينه وطاعته (٣)

حذّرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين من طاعة أهل الكتاب والاغترار بهم فهم يريدون من المؤمنين أن يرتدّوا كفّاراً ، ولا يرضى اليهود منهم إلّا أن يتحوّل المؤمنون يهوداً ، ولا يرضى النّصارى إلّا أن يتحوّل المؤمنون نصارى . وهذه الآية الكريمة تخاطب المؤمنين فى أسلوب الاستفهام الإنكاري : كيف تكفرون وأنتم تُتْلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ إنّ الآية الكريمة تُنكر أشدّ الإنكار أن يتحوّل أصحاب المصطفى ﷺ ، ذلك الرّعيل الّذي ليس له نظيرٌ فى التّقوى خلال العصور ، أن يتحوّل أولئك الأصحاب كفّارا . وكيف يتحوّل أولئك النّجوم الّذين تهتدى بهم الإنسانيّة خلال العصور ، كيف يتحوّلون بفعل أعدائهم من أهل الكتاب كفّارا وإنّ آيات الله تعالى البيّنات الّتى أوحاها الله تعالى إلى عبده وحبيبه محمّد ﷺ لتُتْلى عليهم ، وإنّ المصطفى ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة بين ظهرانيهم يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة .

إنّ القصد من هذا الاستفهام الشّديد الإنكار تقرير البعد الشّديد والمحال الأكيد أن يتحوّل أصحاب المصطفى ﷺ بتضليل أهل الكتاب كفّارا . إنّا لم نسمع خلال العصور عن ارتداد شخص واحد ذاق حلاوة الإيمان عن دين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لعباده فكيف بالصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين الّذين هم بمنزلة النّجوم فبأيّهم اقتدينا اهتدينا .

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ٣٣٧

(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /١٨

(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /١٨

وتقرّر الآية الكريمة فى شقّها الثّاني أنّ من يعتصم بالله تعالى ، فيستمسك بتعاليم آيات الله تعالى البيّنات فى القرآن الكريم ، ويعضّ بالنّواجذ على تعاليم سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم ، فقد هدي إلى صراط مستقيم ، إلى دين الإسلام الّذي أكمله الله تعالى لنا وأتمّ به النّعمة علينا ورضيه لنا ديناً ، وقد قال عزّ من قائل (١) : « إنّ الدّين عند الله الإسلام » وقال تعالى (٢) : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآية من الخاسرين ».

والآية الكريمة وإن كانت متّجهةً أساساً إلى الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم فإنّها وراء ذلك تتّجه إلى المؤمنين فى كلّ زمان ومكان لأنّ كتاب الله تعالى العزيز الّذي تكفّل الله تعالى بحفظه يُتْلى عليهم بل يتلونه ، ولأنّ سنّته ﷺ قد سخّر الله تعالى لها جيشاً من العلماء نفوا عنها كلّ زيف ، فنجم من ذلك ومن حفظ الله تعالى كتابه العزيز كونه ﷺ هو الأسوة الحسنة لنا نحن المسلمين مصداقاً لقوله تعالى (٣) : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ذكر الله كثيرا » فكأنّ المصطفى ﷺ بين ظهرانينا كما كان بين ظهراني الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فهنيئاً لنل نحن المسلمين على نعم الله تعالى العظيمة علينا وآلائه الجسيمة . جاء فى الحديث أنّ النّبيّ ﷺ قال لأصحابه يوماً : أيّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة . قال : وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم . قالوا : فنحن قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأيُّ النّاس أعجب إيماناً ؟ قال : قومٌ يجيؤن من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها (٤)

(١) سورة آل عمران ١٩
(٢) سورة آل عمران ٨٥
(٣) سورة الأحزاب ٢١
(٤) تفسير ابن كثير ١ /٣٨٧

تَوجيهٌ للمُؤمنين وتحذيرٌ ونعوت الأمّة المؤمنة وَصفات الكافرين. الآيات ١٠٢ - ١١٢

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

التّقوى : جعل النّفس في وقايةٍ ممّا يخاف ، هذا تحقيقه ، ثمّ يُسَمّى الخوف تارةً تقوى والتّقوى خوفاً حَسْب تسمية مقتضى الشّيء بمقتضيه والمقتضِى بمقتضاه ، وصار التّقوى فى تعارف الشّرع حفظ النّفس عمّا يؤثِم وذلك بترك المحظور ، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات لما رُوِي : الحلال بيّن والحرام بيّن .ومن رَتَعَ حول الحِمى فحقيقٌ أن يقع فيه (١)
ابن الأعرابيّ :التّقاة والتّقيّة والتّقوى والاتّقاء كله واحد (٢)

طلبت الآية الكريمة السّابقة من المؤمنين أن يعتصموا بالله ويستمسكوا بدينه القويم فذلك هو الصّراط المستقيم . وهذه الآية الكريمة التّالية تطلب من المؤمنين أن تتمثّل فيهم أسمى آيات التّقوى . ولو أنّا تمثّلنا الإسلام فالإيمان فالإحسان ، وتمثّلنا التّقوى وجهاً آخر للإحسان ، فالمطلوب من المؤمنين بنصّ الآية الكريمة أن يتّقوا الله سبحانه وتعالى حقّ تقاته ، وكما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا يُنْسى ، وأن يشكر فلا يُكْفر (٣) والمطلوب منهم وراء ذلك أن يكونوا متمسّكين بدين الإسلام الّذي رضيه الله تعالى لهم حتّى يفارقوا هذه الحياة الأولى ويلقوا وجه الله تعالى الكريم ، فعليهم ألّا يموتوا إلّا وهم مسلمون .
« ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون » « أي حافظوا على الإسلام فى حال صحّتكم وسلامتكم تموتوا عليه فإنّ الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنّه من عاش على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيءٍ بعث عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك » (٤)
وقد اختلف أهل التأويل فى هذه الآية هل هي منسوخة أم لا (٥)
«وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية والرّبيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسّدى وغيرهم إلى أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (٦) : فاتّقوا الله ما استطعتم . وقال عليّ بن أبى طلحة عن ابن عبّاس فى قوله تعالى : اتّقوا الله حقّ تقاته . قال : لم تنسخ ولكن : حقّ تقاته ، أن يجاهدوا فى سبيله حقّ جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم » (٧)

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ ص ٥٣٠
(٢) لسان العرب «وق»
(٣) انظر تفسير الطّبريّ ٤ /١٩ وتفسير ابن كثير ١ /٣٨٧
(٤) تفسير ابن كثير ١ /٣٨٨
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٠
(٦) سورة التّغابن ١٦
(٧) تفسير ابن كثير ١ /٣٨٨ وانظر تفسير الطّبريّ ٤ /٢٠

﴿١٠٣﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

بيّنت الآية الكريمة قبل السّابقة أنّ من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراطٍ مستقيم . وهذه الآية الكريمة تأمر المسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً وأن يستمسكوا بذلك الحبل وألّا يتفرقوا : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » ومن البيّن أنّ الآية الكريمة فى هذه الجزئيّة تأمر المؤمنين بأن يملأوا حياتهم بالاعتصام بحبل الله جميعاً غير متفرّقين . وقد عرفنا معنى الاعتصام بأنّه الاستمساك . فالمطلوب من المؤمنين جميعاً وبدون استثناء أن يستمسكوا بحبل الله تعالى وأن يتعلّقوا بهذا الحبل وأن يلتفّوا حوله لأنّه حبل الله تعالى الموصل اليه .ومن حقّنا بل من واجبنا أن نتمثّل المؤمنين مجتمعين غير متفرّقين مستمسكين بحبل الله تعالى المتين الأمين الموصل اليه جلّ وعلا . والمعروف أنّ الحبل إنّما يستعمل فى حقّ البشر حينما يراد لهم الوصول إلى مالا يستطيعون الوصول إليه بذواتهم ممّا له يحبّون وإليه يصبون ، وحينما يراد انتشالهم من ورطةٍ وإنقاذهم من هلاكٍ أو موت . وقد عرفنا من قبل المناسبة الّتي نزلت فيها الآية الكريمة ، وفى الإمكان أن ينظر إلى هذه الجزئيّة « واعتصموابحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » من زاوية الجماعة سبب النّزول ومن زاوية الأمّة جمعاء لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . فالمطلوب من الصّحابة عموماً ، الأوس والخزرج خصوصاً أن يعتصموا بحبل الله جميعاً وألّا يتفرّقوا ، والمطلوب من الأمّة الإسلاميّة كلّها وراء ذلك أن تعتصم بحبل الله تعالى جميعاً وألّا تتفرّق . فما هو حبل الله تعالى ؟ عرفنا أنّ العديد من الآيات الكريمات يحثّ الأمّة الإسلاميّة على التّمسّك بهذا الدّين الّذي رضيه الله تعالى . والمعروف أنّ القرآن الكريم هو معجزة المصطفى ﷺ ومعجزة هذا الدّين الكبرى الخالدة ، وقد جاء عن عليّ مرفوعاً فى صفة القرآن : هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم (١) والمعروف كذلك أنّ سنّة المصطفى ﷺ هي المبيّنة للقرآن الكريم وقد قال عزّ من قائل (٢) : « وأنزلنا إليك الذّكرى لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون » فالسّنة النّبويّة المطهّرة هي المفتاح الوحيد الّذي يستطاع عن طريقه الولوج إلى حمى القرآن الكريم من أجل الانتفاع بنوره المبين وهديه المستقيم . والحبل بطبيعته يتدلّى من أعلى إلى أسفل كي يعتصم به

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٨/١
(٢) سورة النّحل ٤٤

المعتصمون وكي يتسلّق عليه المتسلّقون وكي يرتفع هو بالمعتصمين به المستمسكين .
والآية الكريمة تستعير للقرآن لفظة الحبل لأوجه الشّبه الّتي إليها أومأنا ، ولأنّ القرآن الكريم ذاته قد أنزله الله تعالى من السّماء إلى الأرض ، بواسطة رسولٍ من الملائكة كريم على رسولٍ من البشر كريم . وقد قال عزّ من قائل فى كتابه العزيز (١) : إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً » فواجب المسلمين في كلّ زمانٍ ومكان أن يعتصموا بحبل الله تعالى جميعاً وألّا يتفرّقوا وذلك بتمسّكهم بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين .

والآية الكريمة تذّكر المؤمنين عامّة ، الأوس والخزرج خاصّة ، بنعمةٍ من أكبر نعم الله تعالى عليهم بعد نعمة الإسلام الكبرى ، ألا وهي نعمة المودّة بين الأوس والخزرج بالإسلام بعد العداوة الّتى استمرّت فى الجاهليّة مايزيد على قرنٍ واحدٍ من الزّمان نشب فيه من المعارك بين الحيّين مالا يعلم عدده وعدد ضحاياه إلّا الله سبحانه وتعالى (٢) وكانت أولى المعارك يوم سُمَيْر وآخرها يوم بُعاث (٣) لقد تحول العداء بالاسلام مودّة وحّلت الأُخوّة الاسلامية محلّ البغضاء والشّحناء إنّ على المسلمين بعامّة ، الأوس والخزرج بخاصّة أن يذكروا هذه النّعمة جيّداً وأن يقدروها حقّ قدرها فقد اصبحوا بنعمة الله تعالى إخوانا .

ولا تقف النّعمة عند هذا الحدّ وفضل الاسلام عند تحويل العداوة إخاءً ، انما يقترن بكلّ ذلك ماهو أهمّ من كلّ نعمةٍ وأكبر الا وهو إنقاذهم من نار جهنّم الّتى كانوا على شفاها وطرفها وحرفها (٤) قال تعالى : « وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها » .

إنّ الواحد منّا لو كان على حافّة حفرة وشفا هاوية فأنقذه شخصٌ منها فإنه لا يستطيع أن ينسى إحسان هذا المحسن إليه . فكيف إذا كانت الانسانية كلها على شفا حفرة وحافّة هاوية ؟ وأيّ هاوية تلك الّتى كادت الانسانيّة تهوى فيها على أمّ رأسها ؟ إنّها نار جهنّم . لقد أنقذ الله سبحانه وتعالى الإنسانيّة من نار جهنّم التى كادت تسقط فيها بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين الّذى جعل الله سبحانه وتعالى معجزته الكبرى الخالدة القرآن الكريم حبل الله تعالى المتين وصراطه المستقيم ونوره المبين .

إنّ الله سبحانه وتعالى كما بين لكم ماذكر يبيّن لكم آياته لعلّكم تهتدون .

(١) سورة الإسراء ٩
(٢) أنظر تفسير الطّبريّ ٢٢/٤
(٣) أنظر تفسير الطّبريّ ٢٢/٤ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٦٥٥/١ – ٦٨٠
(٤) تفسير الطّبريّ ٢٥/٤

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

أمرت الآية الكريمة السّابقة المؤمنين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً وبألّا يتفرّقوا . وتتجاوز الآية التالية هذه المرحلة إلى مرحلةٍ أعلى وأفقٍ أرحب . فإذا كانت الآية الكريمة السّابقة تنظر الى الأمّة المسلمة من زاوية تماسكها ووجوب اعتصامها بحبل الله تعالى ، فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تبيّن رسالة هذه الامّة السامية ، بأن تدعو إلى الله تعالى وأن تعمل جهد الطّاقة فى سبيل اتساع دائرة الايمان .

وإنّ عماد الامّة المسلمة فى هذا الميدان الشّريف تلك الجماعة الّتى أمرت الآية الكريمة بأن تكون : « ولتكن منكم أمّة » ومن رحمة الله سبحانه و تعالى الّتى شملت المسلمين أنّ المهمّة الّتى نصت عليها الآية الكريمة منوطة بجماعة ، فذلك معنى الأمّة فى السياق هنا [1] فهذه المهمّة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين . ووراء ذلك تظلّ هذه المهمّة مسئوليّة كلّ فردٍ قادرٍ على أن يلج الميدان ويدلي بدلوه فيه ، كلٌّ بحسب طاقته . ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنّ النّبيّ ﷺ قال : من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان . وفى رواية : وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل [2] وروى الإمام أحمد والتّرمذيّ وابن ماجة أن النّبيّ ﷺ قال : والّذى نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثمّ لتدعنّه فلا يستجيب لكم . وقال التّرمذيّ : حسن [3] .

وهذه المهمّة العظيمة المنوطة بتلك الجماعة المسلمة ذات شقّين .

الشق الأوّل يمثّله القول : « يدعون إلى الخير » .

والشّقّ الثّانى يمثّله القول : « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وبالنظر الى الشّقّ الأوّل : « يدعون إلى الخير » فى ضوء معرفة الخير بأنّه الإسلام وشرائعه الّتى شرعها الله لعباده [4] يتبيّن أنّ ثمّة ميدانين لدعوة الخير هذه . الميدان الدّاخليّ والميدان الخارجيّ . إنّ حاجة الجماعة المسلمة لدعوة الخير هذه الّتى تبصّرهم بأمور دينهم كبيرة وجدّ ماسّة . ومن هنا يبدو العمل الجليل لهذه الأمّة الّتى تدعو إلى الخير .

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٦
(٢) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٠
(٣) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٠
(٤) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٦

وكي يتبيّن خطورة الرّسالة الّتى تقوم بها هذه الأمّة الّتى تدعوا إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكي يتبيّن أنّ بقاء هذه الأمّة عزيزة الجانب قرين قيام هذه الأمة برسالتها ورهين أدائها الواجب الّذى أمرها الله تعالى به يجب علينا أن نتأمّل جيداً قوله تعالى (١)« لُعِنَ الّذين كفروا من بنى أسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولّون الّذين كفروا . لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ومن العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنّبيّ وما أنزل أليه ما اتّخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم عنهم فاسقون »

إنّ بنى إسرائيل استحقوا اللّعنة ، بمعنى الطّرد من رحمة الله تعالى ، على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ومن أسباب ذلك أنّهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه ، ومن باب أولى ألّا يأمروا بمعروف ، ومن باب الأولى والأحرى ألّا يدعوا الآخرين إلى الخير .

إنّ كيان الأمّة الإسلاميّة رهينٌ بقاؤه ببقاء هذه الأمّة الّتى تدعوا إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

نسأل الله تعالى أن يلهم المسلمين رشدهم وأن يوفقهم لعمل الخير إنّه على كلّ شيء قدير .

(١) سورة المائدة ٧٨ ــ ٨١

والميدان الخارجيّ يراد به العمل الجادّ من أجل نشر هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده بين غير المسلمين من أجل تحقيق وعد الله تعالى الحقّ بإظهار دين الاسلام على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى بالله شهيدا .

وبالنّظر الى الشّقّ الثّانى « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » يتبيّن أنّه بدوره يتألّف من شقّين . الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر . ومن البيّن أنّ هذا الشّقّ بجانبيه يتعلّق بالجماعة المسلمة فى المقام الأوّل ، وكأنّه يأخذ بسبب من دعوة الجماعة المسلمة إلى الخير الّتى تشكّل أحد جانبيّ الشقّ الأوّل .

وكي يتبيّن معنى جانبي هذا الشّقّ الثّانى نحن بحاجة إلى أن نتأمّل كلّ نقطتين متقابلتين فى هذا الشّقّ ، فثمّة أمرٌ ونهي . وثمّة معروف ومنكر . والمعروف ما أمر به الشّرع والمنكر مانهى عنه الشّرع .

والحقيقة أنّ الطّباق له دوره الحميد فى تبيين معنى المعروف . فبما أنّ للمنكر معنىً واحداً وهو ما أنكره الشّرع ونهى عنه . فذلك معناه أنّ المعروف ما استحسنه الشّرع وأمر به ، ويظلّ لفظ المعروف قابلًا للمعنى الآخر وهو أن يكون الأمر ذاته بالحسنى وبالحكمة والموعظة الحسنة . إنّ لفظة المعروف تتضمّن هذا المعنى بدلالة الالتزام وإلّا فإنّ المعنى الأوّليّ هو الّذى يقابل المنكر .

فواجب هذه الامّة المسلمة أن تكون قويّةً بالله تعالى مطبّقةً تعاليم الاسلام أحسن تطبيق كي تتحقّق فيها هي ذاتها الأسوة الحسنة ، ووقتها تجد نفسها موفّقةً بإذن الله تعالى حينما تنطلق من نقطة القوة آمرةً الآخرين بالمعروف ملزمةً لهم بأن يقوموا بذلك المعروف الّذى أمر به الشّرع ، ناهيةً لهم عن المنكر وعن ارتكابه وإتيان أسبابه . ووراء ذلك لكلٍّ من الفرقين المحسن والمسيء مابيّن الله تعالى وبيّن رسوله الكريم ، وما حكم به الله تعالى وحكم به رسوله الكريم . للمحسن ثواب إحسانه وللمسيء عقاب إساءته .

والآية الكريمة الّتى تعبّر عن الجماعة بلفظ الأمّة ، والّتى تستعمل جملة «يدعون» وليس جملة تدعو ، ممّا يفهم معه أنّ الرّجال هم عصب هذه الجماعة ، ويساعدهم على هذه الرّسالة النّساء الصّالحات القانتات ، الآية الكريمة تراعى هذا المعنى فى القول : « وأولئك هم المفلحون » فالرّجال والنّساء الّذين يقومون فى الأمّة المسلمة بهذه المهمّة ، مهمة الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر هم المفلحون الفائزون النّاجون بفضل الله تعالى وبرحمته .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

نهت الآيات الكريمات المؤمين عن طاعة غير المؤمنين ، وأمرتهم بالاعتصام بحبل الله جميعاً وبعدم التّفرق ، كما أمرتهم أن تكون منهم أمّة يدعون إلى الخير بنشر الإسلام من الخافقين ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كي تحافظ الأمّة على شبابها المتجدّد . وإذا كانت الآيات الكريمات قد أمرت باجتماع الكلمة على دين الله تعالى ونهت عن الفرقة وشقّ عصا الجماعة فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعمّق هذه المعانى عن طريق نهي الجماعة المؤمنة عن أن تكون مثل اليهود والنّصارى الّذين تفرّقوا وقد امروا بالاجتماع واختلفوا وقد أمروا بأن يتّفقوا . ومتى يحصل كلّ ذلك من اليهود والنّصارى ؟ يحصل منهم كلّ ذلك من بعد ما جاءهم البيّنات عن طريق رسل الله تعالى إليهم وبخاصّة موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام . وما الّذى استحقّة اليهود والنّصارى وقد خالفوا تعاليم السّماء ؟ استحقوا العذاب العظيم ، فى الآخرة بخاصّة .

إنّ الآية الكريمة حينما تنهى المؤمنين عن أن يكونوا كاليهود والنّصارى الّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات فلأنّها لا تريد لهم العذاب العظيم . فى الآخرة بخاصّة ، مع العلم بأنّ العذاب يصحّ أن يحلّ فى هذه الدّنيا كالّذى يتمثّل اليوم فى ذهاب ريح المسلمين وتفرّقهم شيعاً وأحزاباً . وإذا كان العذاب العظيم من نصيب اليهود النصارى مع التحريف الذى نال كتابيهما السّماويّين فكيف العذاب العظيم الّذى يصحّ أن يلحق بالمسلمين حينما يتفرّقون ويختلفون وهم الّذين ينعمون بكتاب الله تعالى العزيز الّذى تكفّل بحفظه وبسنته ﷺ المبيّنة للقرآن ؟ إنّ على المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعاً وألّا يتفرّقوا وإلّا كان عذابهم فى الدنيا والآخرة عظيماً . روى الامام أحمد أنّ معاوية بن أبى سفيان لمّا قدم مكة فى حج قام حين صلّى صلاة الظّهر فقال : إنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملّة . وإنّ هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ملّة ، يعنى الأهواء كلّها فى النار إلّا واحدة ، وهى الجماعة . وإنّه سيخرج فى أمّتى أقوامٌ تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه لا يبقى منه عرقٌ ولا مفصل إلّا دخله[1] ويقول ابن تيمية[2] : «وكلمّا كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر» .

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣٩٠ (٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٣٢

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الذّين تفرقوا واختلفوا من بعدّ ما جاءهم البيّنات أولئك لهم عذابٌ عظيم . وتبيّن أولى الآيتين الكريمتين بعد ذلك أنّ ذلك العذاب العظيم سيكون فى يوم القيامة الذّى تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودّ فيه وجوه الكافرين . «يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه» وقد قدّم السّياق المؤمنين أوّلًا لأنّ ذلك مقامهم ولأنّ القصد حثّ عباد الله تعالى على أن يكونوا فى هذه الحياة الدّنيا مؤمنين كي تبيضّ وجوههم يوم القيامة . وبما أنّ ثمّة كافرين بالضّرورة ، وهؤلاء تسودّ وجوههم يوم القيامة ، فقد أخّر السّياق ذكرهم تبعاً لتأخّر مرتبتهم .

ولمّا كان حديث الآيات الكريمات يدور فى مجموعه حول الكافرين بأنواعهم ، وفيهم النّصارى وفيهم اليهود ، ولمّا كان القصد محاصرة أولئك الكافرين وفضحهم على رءوس الأشهاد بأن يتحوّلوا مؤمنين فتصحّ لهم الحياة الطيّبة فى الأولى والآخرة ، فقد كان الحديث بعد ذلك محقّقاً لهذه الغاية مبيّناً أوّلًا مصير الكافرين السّيّىء ، فلعلّ القوم يتحوّلون مسلمين لله ربّ العالمين فتبيضّ وجوههم يوم القيامة ويقال لهم ادخلوا فى رحمة الله تعالى أى فى جنّته الّتى عرضها السّماوات والأرض خالدين .

وهذه المناسبة الّتى يتمّ فيها تقرير مصير الكافرين السّيّىء بقصد التّحوّل عنهم والتّطهّر منهم ، تسبقها مناسبةٌ مماثلة يتقدّم فيها للسّبب نفسه والحكمة ذاتها الحديث عن مصير أولئك الكافرين . فثمّة توطئةٌ وتمهيد ، وثمّة تجانسٌ واتّساق فى اتّجاه الحديث ومعالجة القضايا رغم بعد الموضعين . جاء فى الحديث عن عيسى عليه السّلام وعن مصير الكافرين والمؤمنين قوله تعالى [1] : «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إنّى متوفّيك ورافعك إلىّ ومطهّرك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثمّ إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدّنيا والآخرة ومالهم من ناصرين . وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحبّ الظّالمين» .

(١) سورة آل عمران ٥٤ ــ ٥٧

ويجيء هنا قوله تعالى : «فأمّا الّذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون» والمعنى فأمّا الّذين اسودّت يوم القيامة وجوههم بسبب كفرهم فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففى جنّة الله تعالى ونعيمها وما أعد الله لأهلها فيها هم خالدون اي باقون فيها أبداً بغير نهايةٍ ولا غاية (١) وبسبب الاستغناء عن القول : فيقال لهم ، للعلم به ، سقط وسقطت معه الفاء الّتى يجب اقترانها بجواب أمّا «فلمّا أسقط الجواب سقطت الفاء معه» (٢) وإنّما جاز ذلك لدلالة ماذكر من الكلام عليه (٣)

والآية الكريمة تبيّن أنّ السّبب الّذى من أجله اسودّت وجوه القوم هو كفرهم بعد إيمانهم . ولمّا كان كلّ عباد الله تعالى قد آمنوا وهم فى عالم الذّرّ بعد أن أخذ الله تعالى عليهم العهد ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى (٤) : «وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون» فقد رجّح الطّبريّ أنّ المعنيّ بذلك «جميع الكفّار وأنّ الإيمان الّذى يوبّخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الّذى أقرّوا به يوم قيل لهم : ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا ....» (٥) ولا ينفى ذلك بطبيعة الحال انسحاب الآية الكريمة على كلّ من كفر بعد إيمانه بالارتداد عن دين الله تعالى ، أو بالنّفاق فالمنافق كافرٌ قلبه ، بل إنّ الآية الكريمة لتشمل من كفر بعد إيمانه من المسلمين من أهل القبلة حين اقتتلوا (٦)

إنّ الّذين اسودّت وجوههم يوم القيامة يقال لهم ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وإنّ الّذين ابيضّت وجوههم فى رحمة الله تعالى هم خالدون وفى جنّته الّتى عرضها السّماوات والأرض . وفى مقابل خلود المؤمنين فى الجنّة خلود الكافرين فى النّار وبئس القرار .

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٨
(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٨
(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٨
(٤) سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٢٧
(٦) انظر تفسير الطّبريّ ٤ /٢٧

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ماقصّته الآيات الكريمات من أخبار أهل الكتاب ومواقفهم ومابيّنته من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين هو الحقّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى المصطفى ﷺ بواسطة جبريل عليه السّلام الّذى تلا تلك الآيات البيّنات على المصطفى ﷺ . كما تقرّر الآية الكريمة أنّ ماناله كلٌّ من الفريقين من ثوابٍ أو عقابٍ نتيجة حتمية لعمل كلٍّ من الفريقين فى الحياة الدّنيا ، وحينما تنفى الآية الكريمة عن الذات العليّة إرادة الظّلم هى تنفى الظّلم بطريق الأولى والأحرى ، وحينما ينفى الظّلم يثبت العدل . وهذا أمرٌ بيّن .

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

تقرّر الآية الكريمة إنّ لله سبحانه وتعالى الّذى لا يظلم مثقال ذرّة، كلّ مافى السّماوات ومافى الأرض ، ملكاً وخلقاً وعبيداً . خلق جلّ وعلا كلّ شيءٍ وقدّره تقديرا . إن أحسن العباد فى الحياة الدّنيا ابيضّت وجوههم فى الآخرة وأثيبوا ، وإن أساء العباد فى الحياة الدّنيا اسودّت وجوههم فى الآخرة وعوقبوا . إن لله سبحانه وتعالى ترجع الامور كما يرجع العباد إليه تعالى فقيل للمؤمنين هذه رحمة الله تعالى لكم وهذه جنّته أنتم خالدون فيها ، وقيل للكافرين هذه لعنة الله تعالىعليكم وهذه ناره أنتم خالدون فيها . إنّ الله سبحانه وتعالى حينما يرحم فبفضله جلّ وعلا ، وحينما يعذّب فبعدله ، لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه جلّ وعلا . والآية الكريمة معّمقة لنفي الظّلم فى الآية الكريمة السّابقة لأنّ من بيده ملكوت كلّ شيءٍ لا معنى لظلمه أحداً ، «وذلك أن الظّالم إنّما يظلم غيره ليزداد إلى عزّه عزّةً بظلمه إيّاه وإلى سلطانه سلطاناً وإلى ملكه ملكاً» [1] والله سبحانه وتعالى هو الغنّي .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤ /٢٨

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله : «أصل المعروف كلّ ماكان معروفاً فَفِعْلُهُ جميل مستحسن غير مستقبح فى أهل الإيمان بالله . وإنّما سمّيت طاعة الله معروفاً لأنّه ممّا يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله . وأصل المنكر ما أنكره الله ورأوه قبيحاً فعله . ولذلك سمّيت معصية الله منكراً لأنّ أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها . وقوله : وتؤمنون بالله يعنى تصدّقون بالله فتخلصون له التّوحيد والعبادة» (١)

الأمّة الإسلاميّة آخر الأمم وخير الأمم . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال : نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة . نحن أوّل الناس دخولًا الجنّة ، بيد أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحقّ . فهذا اليوم الّذى اختلفوا فيه النّاس لنا فيه تبع ، غداً لليهود وللنّصارى بعد غد . رواه البخارىّ ومسلم وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة ، ونحن أوّل من يدخل الجنّة (٢)

وثبت فى الصّحيحين من حديث أبى إسحاق السّبيعيّ عن عمرو بن ميمون عن عبدالله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ : أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنّة ؟ فكبّرنا ثمّ قال : أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنّة ؟ فكبّرنا . ثم قال : إنّى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنّة(٣)

تبيّن ممّا سبق أنّ الأمّة الإسلاميّة وإن كانت آخر الأمم فإنّها خير أمّة . والآية الكريمة تقرّر هذه الحقيقة «كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس» والمعروف أنّ القول «كنتم» ينسحب على كلّ الأزمنة حينما تحقّق الأمّة الإسلامية الشّروط الّتى تؤهلها كي تكون خير الأمم ، والمعروف أنّ لفظ «خير» فى الأصل أخير ، وبسبب كثرة الاستعمال سقطت الهمزة . وتجىء جملة «أخرجت» فى صيغة المبنى للمجهول ، فالمشيئة الإلٰهيّة أرادت لهذه الأمة أن تخرج . وهي لا تخرج لذاتها ولا لمصلحتها الشّخصيّة ولكن لخير النّاس كلّ النّاس ولنفعهم «كنتم خير أمّةٍ أخرجت للنّاس» .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤ /٣٠

(٢) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٦

(٣) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٥

فماهى مقوّمات هذه الخيريّة وماهي شروطها ؟ : «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» وسبق أن عرفنا معنى هذه الجزئيّة الكريمة . فهي تأمر بالمعروف والحسن فى نظر الشّرع وبما يعرفه أهل الإيمان من كلّ فعلٍ جميل مستحسن ، وهي فى المقابل تنهى عن المنكر والقبيح فى نظر الشّرع وعن كل معصية يستنكر أهل الإيمان بالله فعلها ويستعظمون ركوبها . وهي أخيراً تؤمن بالله تعالى ، توحّده جلّ وعلا ولا تشرك معه سواه وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه .

إنّ فى الإمكان أن ننظر إلى هذه الشّروط أو المقوّمات باعتبار الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر وجهين لعملةٍ واحدة ، فهذا الشّرط ذو شقّين . أمّا الشّرط الآخر فهو الإيمان بالله تعالى . وحينما يكون توحيد الله تعالى هو الأساس نستطيع أن نتبيّن أهمّيّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر باعتباره واحداً من أهمّ مقوّمات هذه الأمّة . ونستطيع ــ دليلًا على مدى أهمّيّة هذا الشّرط أو المقوّم فى حقّ الأمّة المسلمة ــ أن ننظر إلى الأمر بالمعروف باعتباره شرطاً وإلى النّهي عن المنكر باعتباره شرطاً آخر . وفى هذا المجال يشكّل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ثلثي مجموع الشّروط الّتى ينبغى أن تتحقّق فى خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . وماهو الثلث الأخير أو الشّرط الثّالث ؟ إنّه توحيد الله تعالى .

وتبدو وجاهة هذه النّظرة الثّانية حينما نتبيّن أنّ هذه الشّروط تتدرّج من الهامّ إلى المهمّ فالأهمّ . إنّ ثمّة اتّفاقاً بشأن كون الإيمان بالله تعالى أهمّ الشّروط الثلاثة . وإنّ تأخير النّهي عن المنكر عن الأمر بالمعروف قوّةٌ لهذا الاتّفاق ، لأنّ النّهي عن المنكر أصعب من الأمر بالمعروف ، بمعنى أنّ الأمر بالمعروف أقرب الأمور الثلاثة تناولًا . إنّ النّهي عن المنكر أقرب إلى أخذ النّاس له مأخذ الخصوص ، خاصّةً من زاوية الظّالمين والطّغاة .

ووراء ذلك يظلّ الأمر بالعروف والنّهي عن المنكر متلازمين ، ويظلّ كلٌّ منهما دليلًا ومقياساً دقيقاً يستدلّ بهما على خيريّة هذه الأمّة ويقاس بهما مدى الامتثال لأوامر الله تعالى .

إنّ على الأمّة الإسلاميّة أن تعرف جيّداً أنّ وجودها أمّةً عزيزة الجانب رهين تحقيق هذه الشّروط الثّلاثة كاملةً غير منقوصة . وأنت حينما تعلم أنّ المسلمين بعد زهاء مائة سنة من وفاة المصطفى كانوا سادة الدّنيا تعلم أنّ هذه الأمّة المسلمة قد حقّقت هذه الشّروط الثّلاثة .

وأنت حينما تتبيّن أنّ المسلمين بعد ألفٍ وأربعمائة سنة من هجرة المصطفى ﷺ قد غدوا ذيلًا لسائر الأمم ، تدرك أنّ هذه الأمّة المسلمة قد أخلّت بتلك الشروط وخانت الأمانة ولم تؤمن بالله تعالى الإيمان الحقّ . فعلى هذه الأمّة أن تعود فوراً إلى بارئها جلّ وعلا كي يتحقّق وعد الله تعالى لها فى مثل قوله عزّ من قائل [1] :«وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تعتبر تبييناً للشّرط الثّالث : «وتؤمنون بالله» ومن البيّن كذلك أنّ السّياج الّذى يحمى ذلك الإيمان ويضمن له البقاء والنّماء والتّحليق ، جناحا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر .

وإذا كان شقّ الآية الاوّل مدحاً للمؤمنين ، فإنّ شقّ الآية الثّاني ذمٌّ فى مجموعه لأهل الكتاب . قال تعالى : «ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» إنّ أهل الكتاب يستطيعون أن يكونوا جزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ للنّاس وذلك بأن ينضمّوا إلى الفئة المؤمنة المصدّقة لخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ .

وتنص الآية الكريمة على أنّ إيمان أهل الكتاب خيرٌ لهم ، ولو أنّهم آمنوا وصدّقوا بالرّسول الخاتم لكان خيراً لهم ، ولكنّهم للأسف لم يؤمنوا فى مجموعهم ، وآثر أكثرهم الكفر قال تعالى : «منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» إنّ القليل من أهل الكتاب هم الّذين آمنوا وصدّقوا رسول الله ﷺ فيما جاءهم به من عند الله وهم عبدالله بن سلام وأخوه وثعلبة بن سعيد وأخوه وأشباههم [2] والآية الكريمة فى الدّلالة على كفر الأكثريّة يجيء فيها القول : «وأكثرهم الفاسقون» وليس : وأكثرهم الكافرون . والمعروف أنّ الفسق هو الخروج من الصّراط المستقيم ، والمعروف أنّ فى كلٍّ من التّوراة والإنجيل نعوت المصطفى ﷺ والأمر باتّباعه عليه الصلاة والسّلام إذا بعثه الله تعالى . وإنّ اليهود والنّصارى يفسقون عن أمر الله تعالى الّذى تضمّنه كلٌّ من التّوراة والإنجيل ويتعمّدون مخالفة الكتابين السّماويّين عن عمدٍ وسبق إصرار فاستحقّوا أن يوصفوا بأنّهم الفاسقون وذلك بسبب كفرهم بتعاليم التّوراة والإنجيل وعدم تصديقهم واتّباعهم خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أجمعين صلوات الله تعالى وسلامه .

(١) سورة النّور ٥٥ (٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٣١

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّ أهل الكتاب لن يستطيعوا ــ بإذن الله تعالى ــ أن يضرّوا خير أمّة أخرجت للنّاس إلّا أذىً بألسنتهم من سبٍّ ووعيدٍ وإسماع المؤمنين كفرهم ودعوة المؤمنين إلى ضلالاتهم وما إلى ذلك . وإذا صحّ أنّهم دخلوا مع الأمّة الّتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فى قتالٍ فعلىّ فإنّ النّصر حليف المؤمنين ، وإنّ الهزيمة وتولية الأدبار من نصيب أهل الكتاب ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى لن ينصر القوم على خير أمّةٍ أخرجت للنّاس .

وحينما يتبيّن أنّ المسلمين فى العصور الأخيرة وفى الوقت الحاضر ينتصر عليهم غير المسلمين المرّة تلو المرّة فذلك دليلٌ على أنّ المقوّمات الّتى تقوم عليها خير أمّةٍ أخرجت للنّاس قد تسرّب إليها الخلل ودبّ إليها الفساد ، فعلى الأمّة المسلمة أن تعود الى الله تعالى بصدقٍ ، وأن تفي بما عاهدت الله تعالى عليه ، وأن تعمل جاهدة من أجل هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، وأن تنصر الله تعالى كي ينصرها الله تعالى وكي يفي جلّ وعلا لها بما وعدها به من نصر وتمكين .

ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

ضربت عليهم الذّلّة : ألزموها وقضي عليهم بها لزوم الدّرهم المضروب لسكّته . والسّكّة : حديدة منقوشة تضرب عليها الدّراهم .

الذّلّة : الذّلّ والصّغار [1] وقيل : الذّلّة كأنّها هيئةٌ من الذّلّ كالجلسة . والذّلّ : الخضوع وذهاب الصّعوبة [2] يقول الطبريّ [3] : «الذّلّة : الفِعلة من الذّلّ» «من قول القائل : ذلّ فلانٌ يذلّ ذلًّا وذلّة ، كالصِّغرة من صغر الأمر والقِعدة من قعد» [4]

(١) تفسير الطّبريّ ص ٣٦٦
(٢) البحر المحيط ١ /٢٢٠
(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٢
(٤) تفسير الطّبريّ ١ /٢٤٩

أينما ثُقِفوا : حيثما لقوا وأينما كانوا من الأرض وبأيّ مكانٍ كانوا من بقاعها من بلاد المسلمين والمشركين (١) .

إلّا بحبل من الله وحبلٍ من النّاس : «عن ابن عبّاس : قوله : أينما ثقفوا إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس ، فهو عهدٌ من الله وعهدٌ من النّاس ، كما يقول الرّجل : ذمّة الله وذمّة رسوله ﷺ فهو الميثاق» (٢)

وباءوا بغضبٍ من الله : «قال أبو جعفر : يعنى بقوله : وباءوا بغضبٍ من الله ، انصرفوا ورجعوا . ولا يقال : باءوا إلّا موصولًا إمّا بخير وإمّا بشرّ . يقال منه : باء فلانٌ بذنبه يبوء بوءً وبواءً . ومنه قول الله عزّ وجلّ : إنّى أريد أن تبوء بإثمي وإثمك يعنى تنصرف متحمّلهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى» (٣) «وقولك : باء فلانٌ بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته ، اي صاروا أحقّاء بغضبه» (٤) .

والمسكنة : ذلّ الفاقة والفقر وخشوعهما (٥) وهي مأخوذةٌ من السّكون ، أي قلّل الفقر حركته قاله الزّجّاج (٦) والمضروب عليهم الذّلّة والمسكنة اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ . قاله الجمهور (٧)

بغير حق : «معناه أنّهم قتلوهم بغير الحقّ عندهم .... فلوسئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقّون به القتل عندهم» (٨)

بماعصوا : الباء فى بما باء السّبب . قال الأخفش : أي بعصيانهم . والعصيان خلاف الطّاعة (٩) .

والاعتداء : تجاوز الحدّ الّذى حدّه الله لعباده إلى غيره (١٠)

ثمّة وجه شبهٍ كبيرٍ بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الحادية والسّتّين من سورة البقرة . قال تعالى : «وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعامٍ واحد فادع لنا ربّك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم . وضربت عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير الحقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» .

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٤ /٣٢
(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٢
(٣) تفسير الطّبريّ ١ /٢٥٠
(٤) الكشّاف ١ /٢١٩ وانظر البحر المحيط ١ /٢٣٦
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٣
(٦) تفسير القرطبيّ ص ٣٦٦
(٧) البحر المحيط ١ /٢٣٦
(٨) الكشّاف ١ /٢١٩
(٩) تفسير الطّبريّ ص ٣٦٨
(١٠) تفسير الطّبريّ ١ /٢٥١

وسبق أن قلنا بشأن آية البقرة الكريمة [1] : «وهكذا نتبيّن أنّ كلّ ثلاثة أمور يبنى بعضها على بعض . عصيان فكفرٌ بآيات الله تعالى فضرب الذّلّة والمسكنة عليهم . اعتداء فقتلهم الأنبياء بغير حقّ فرجوعٌ بغضبٍ من الله تعالى . هذه هى صفات بنى إسرائيل بنصّ الكتاب العزيز» .

والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعمّق هذه المعانى وتوسع أطرافها وتضيف بعض الأبعاد الجديدة . إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى قد ضرب على بنى إسرائيل الذّلّة والهوان والصّغار أينما ثقفوا وأينما وجدوا وحيثما حلّوا . هذه هي القاعدة الأساسية . ولهذه القاعدة بإرادة الله تعالى استثناء حينما ترفع عنهم الذّلّة إلى حين بسبب عهدٍ من الله تعالى وبسبب عهدٍ من المسلمين يعطونهم إيّاه فيأمنون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم . وهؤلاء هم أهل الذّمّة . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة النّاس الّتى تشمل المسلمين وغير المسلمين . وقد عرفنا معنى الحبل من قبل المسلمين وقد تبيّن أنّه مرتبطٌ بوجود خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، وهى الأمّة الّتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فتطبّق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين وتجاهد فى سبيل الله تعالى ولا تأخذها فيه جلّ وعلا لومة لائم . إنّ هذه الأمة الّتى تلك صفاتها هى المعنيّة بالحبل من جهة المؤمنين العزيزين بالله تعالى ورسوله ﷺ وبدين الله تعالى الّذى يطبّقون تعاليمه . وفى حالة غياب هذه الأمّة المسلمة العزيزة بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبدين الله تعالى الذى رضيه جلّ وعلا لعباده ، يكون الحبل المدود بإرادة الله تعالى إلى بنى إسرائيل من قبل الكافرين أعداء الإسلام لأنّ الكفر كلّه أمّةٌ واحدة وملّةٌ واحدة .

ويبدو ـــ والله تعالى أعلم ـــ أنّ بنى إسرائيل يعيشون هذه الأيّام فترة استثناء بسبب الحبل المدود لهم من الله تعالى استدراجاً لهم كي يسوموا المسلمين فى هيئة دولة إسرائيل الخسف . وماكان شيءٌ من ذلك لِيَتِمّ لو أنّ خير أمّةٍ للنّاس كانت موجودةً لأنّها هي المقصودة أساساً بالنّاس فى الآية الكريمة . وحينما تخلّت هذه الأمّة عن رسالتها قام بدورها الفريق الآخر من النّاس ، الفريق الآخر الكافر ، فكان منه الحبل المدود لبنى إسرائيل كي يعيثوا فى الأرض فساداً ، على نحو ماهو موجودٌ اليوم ومعروف .

(١) التّفسير البسيط للقرآن الكريم ١ /١٥٨

لقد اقترن بالذّلّة الّتى حلّت بالقوم الغضبُ من الله تعالى الّذى آبوا ورجعوا به والّذى استحقّوه كفاء ماقاموا به من ذنوبٍ وآثام ، كما اقترنت بذلك المسكنة الّتى حلّت بهم وذلّ الفاقة والفقر ، فقر الجيب وفقر النّفس وخشوعهما .

وإذا كنّا نرتّب الأمور السّتّة هنا على نحو ترتيبنا لها فى آية البقرة الحادية والسّتّين ، كلّ ثلاثة أمور مبنيٌّ بعضُها على بعض تشكّل شقّاً ، فثمّة عصيانٌ من القوم فكفرٌ بآيات الله تعالى فضرب الذّلّة والمسكنة عليهم ، وهذا هو الشّق الاوّل ، وثمّة اعتداءٌ فقتلهم الأنبياء بغير حقّ فرجوعٌ بغضبٍ من الله تعالى ، إذا كنّا نرتّب الأمور هنا على نحو ترتيبنا لها بشأن آية البقرة ، فالملاحظ أنّ ثمّة اختلافاً طفيفاً فى ترتيب الأمر الثّالث فى كلٍّ من الشّقّين ، الذّلّة والمسكنة والغضب من الله تعالى . جاء فى سورة البقرة قوله تعالى : «وضربت عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله» وجاء هنا قوله تعالى : «ضربت عليهم الذّلّة أينما ثقفوا إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضربت عليهم المسكنة» .

والمعروف أنّ المسكنة قرينة الذّلّة ، فكأنّ آية البقرة جمعت بين القرينين ، وكأن الآية الكريمة هنا جعلت الغضب من الله تعالى الّذى باء به بنو إسرائيل بين الذّلّة والمسكنة إشعاراً بأنّ القوم خلال تاريخهم الطّويل يتقلّبون بين ذلٍّ ومسكنة وغضبٍ من الله تعالى ، يحدث ذلك أحياناً وفق هذا النّسق ، ويحدث أحياناً أخرى وفق تغيير فى هذا التّرتيب ، والفيصل فى هذا التّرتيب أو ذاك بروز هذه الصّفة أو تلك أكثر من الصّفة الأخرى الموجودة هى أيضاً .

ونستطيع أن نفهم من التّغيير فى ترتيب هذه العواقب الوخيمة فى حقّ بنى إسرائيل من الآيتين الكريمتين ، طول الفترة الّتى احتاج إليها بنو إسرائيل بعد موسى عليه السّلام حتى تورّطوا بعد ذلك فيما تورّطوا فيه ، واستحقّوا ما كتب الله تعالى عليهم وضربه من ذلّة ومسكنة وغضب . وبهذا يفهم أنّ طلب بنى إسرائيل من موسى عليه السّلام أن يدعو ربه بأن يخرج لهم ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها بدلًا من المنّ والسّلوى ليس سوى مؤشّر لما سوف يتورّط فيه بنو إسرائيل مستقبلًا ممّا نصّت عليه آية سورة البقرة من ناحية وآية سورة آل عمران من ناحيةٍ أخرى .

ونستطيع أن نفهم من الآيتين الكريمتين أنّ الغضب من الله تعالى هو أسوأ ماحصل عليه القوم وآبوا به واستحقّوه . وبهذا يتبيّن أنّ المغضوب عليهم فى القرآن الكريم هم اليهود .

نعوت مؤمني أهل الكتاب

الآيات ١١٣ - ١١٥

لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾

سبب النزول :ـ

عن محمّد بن إسحاق عن ابن عبّاس قال : لمّا أسلم عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ومنحوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمّدٍ ولا تبعه إلّا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ماتركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم : ليسوا سواءً . من أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله إلى قوله : وأولئك من الصّالحين (١)

ليسوا سواءً : أي ليسوا كلّهم على حدٍّ سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم (٢)

من أهل الكتاب أمّةٌ قائمة : من أهل الكتاب جماعةٌ ثابتةٌ على الحقّ (٣) قائمة بأمر الله مطيعةٌ لشرعه متّبعةٌ نبيّ الله فهي قائمة يعنى مستقيمة (٤) على الهدى وكتاب الله وفرائضه وشرائع دينه بالعدل والطّاعة وغير ذلك من أسباب الخير من صفة أهل الاستقامة على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ (٥)

آناء اللّيل : ساعات اللّيل واحدها إنى (٦)فالإنى والأنى ، ساعةٌ من ساعات اللّيل ، والجمع آناء . وكلّ إنىً ساعة (٧)

يسجدون : هو السّجود المعروف فى الصّلاة (٨) .

بيّنت الآيات الكريمات السّابقات أنّ من أهل الكتاب مؤمنين وأنّ أكثرهم فاسقون ، كما بيّنت بعض صفات الفاسقين . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبيّن بعض نعوت المؤمنين من أهل الكتاب الّذين آمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين فأصبحوا من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . وتبيّن الآية الكريمة من القول ابتداءً : «ليسوا سواءً» أنّ أهل الكتاب

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٥
(٢) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٧
(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٥
(٤) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٧
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٦
(٦) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٦
(٧) معجم مقاييس اللّغة «أنى» ١ / ١٤٢
(٨) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٧

إذا كان منهم كثيرٌ فاسقون ، فليسوا جميعاً مستوين فى صفة الفسق هذه والخروج من الصّراط المستقيم بل إنّ منهم مؤمنين . ثمّ تبيّن الآية الكريمة صفة هذه الجماعة المؤمنة من أهل الكتاب . إنّ من أهل الكتاب أمّةً ثابتةً على الحقّ قائمةً بأمر الله تعالى مستقيمةً على كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة حبيبه المصطفى ﷺ . وقد عرفنا بعض أسماء هذه الجماعة الثّابتة على الحقّ . ومن سمات هذه الجماعة من أهل الكتاب والّتى أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس أنّها تتلو آيات الله تعالى آناء اللّيل وترتّل القرآن الكريم فى ساعات اللّيل وتتأمّله وتتدبّره فى غير الصّلاة وفى الصّلاة . والآية الكريمة تعبّر عن تجافى جنوب هذه الأمّة من أهل الكتاب الّتى أسلمت عن المضاجع والّتى تتلو القرآن الكريم فى الصّلاة بأنّها تسجد لله تعالى . والمعروف أنّ الصّلاة يعبّر عنها بالسّجود لأنّه ركنٌ من أهم أركانها ولأنّ العبد أقرب مايكون لله تعالى وهو ساجد . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب من قوله تعالى فى نعوت المؤمنين الّذين إذا ذكّروا بآيات الله خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون : «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون» (١) .

والآية الكريمة الّتى تذكر بعض نعوت أهل الكتاب تذكّرنا بمثل قوله تعالى (٢) : «الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين» .

(١) سورة السّجدة ١٦

(٢) سورة القصص ٥٢ ــ ٥٥

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

تبيّن أولى الآيتين الكريمتين مجموعةً من نعوت الأمّة المؤمنة من أهل الكتاب . إنّهم يؤمنون بالله تعالى فيعبدونه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، ويؤمنون باليوم الآخر فثمّة بعثٌ بعد الموت فحساب ، ثوابٌ أو عقاب ، ومن ثمّ هم يعملون وفق هذا العلم . ومن أهمّ مايقومون به من أعمالٍ كونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وفى مقدمة مايأمرون به من معروف تصديق محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى بعثه الله تعالى بدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، وفى مقدّمة ماينهون عنه من منكر الإشراك مع الله تعالى غيره وتكذيب محمّد بن عبدالله ﷺ . وهم وراء ذلك يسارعون فى الخيرات ، ويبادرون إلى الحسنات ، امتثالًا لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ . وتقرّر الآية الكريمة فى نهايتها أنّ أولئك من الصّالحين . والمعروف أنّ صفة الصّلاح مشتركة بين كلّ عباد الله تعالى المنعم عليهم ابتداءً بالمرسلين والنّبيّين .

وتعمّق الآية الكريمة الثّانية صفة الصّلاح الّتى قرّرتها الآية الكريمة الأولى وأثبتتها لتلك الأمّة المؤمنة من أهل الكتاب ، فتبيّن أنّ ماتفعله تلك الأمّة الصّالحة من خير فلن يكفروه ، ولن يمضي هباءً ويذهب سدىً ، ولن يهمل ، بل إنهم سيثابون عليه وسيشكرون عليه . وتقرّر الآية الكريمة فى نهايتها أنّ الله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بالمتّقين ، الّذين اتّقوا النّار بأعمالهم الصّالحة واجتناب السّيّئات امتثالًا لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ . ويدخل أولئك المؤمنون من أهل الكتاب ضمن الّمتقين الّذين يعلم الله سبحانه وتعالى أعمالهم ونواياهم فيجازيهم عليها .

وبالنظر إلى نعوت هذه الأمة المؤمنة من أهل الكتاب ، القائمة على الحقّ السّائرة فى الصّراط المستقيم الّتى تتلو القرآن الكريم آناء اللّيل وأطراف النّهار ، وتتجافى جنوبها عن المضاجع راكعةً لله ساجدة ، وتؤمن بالله واليوم الآخر وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتسارع فى الخيرات ، صادقةً فى كل أعمالها الصّالحة مخلصةً ، مفردةً الله تعالى بالعبادة ، وبالمقارنة بين نعوت هذه الأمّة المؤمنة من أهل الكتاب وبين نعوت خير أمّةٍ أخرجت للنّاس فى قوله تعالى : « كنتم خير أمّةٍ أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» يتبيّن أنّ نعوت الأمّتين واحدة ، وأنّ نعوت مؤمنى أهل الكتاب مفصّلة لنعوت خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . وكيف لا تكون النّعوت واحدة وإنّ مؤمنى أهل الكتاب الآن جزءٌ لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، تلك الأمّة التى تؤمن بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولًا وبالقرآن الكريم دستوراً .

أعمال الكافرين هباء وصدهم عن السبيل حسرة
وتحذير من اتخاذهم بطانة. الآيات ١١٦ - ١٢٠

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

ثمّة وجه شبه كبيرٍ بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة العاشرة . قال تعالى : «إنّ الّذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النّار» وإذا كانت الآية الكريمة العاشرة تنطلق بشأن وقود النّار من الّذين كفروا بالقرآن الكريم وبالرّسول العظيم ، ويستوى فى ذلك كافرو بنى إسرائيل ومنافقوهم ، وكافرو العرب ومنافقوهم ، فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تنطلق من كافرى أهل الكتاب والفريق الفاسق منهم الأكثر عدداً ، وتشمل وراء ذلك كلّ الكافرين من أهل الكتاب وسواهم . والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم يوم القيامة بخاصّة ، أموالهم الّتى يملكونها ومن باب أولى الأموال الّتى لايملكونها ، ولا أولادهم الّذين يعتمدون عليهم بأكثر من اعتمادهم على سواهم بسبب قربهم الشديد منهم والحبّ المتبادل بين الآباء والأبناء ، ومن باب الأولى ألا يغنى عنهم الّذين يتعدون عن الأبناء نسباً ويقلّون حبّاً . إنّ الأموال والأولاد لن تغنى شيئاً ولن تنفع من عذاب الله تعالى ولن تدفع .

وتضيف الآية الكريمة إلى ماسبق أمراً أشدّ فظاعةً من سابقه وهو كون الكافرين هم أصحاب النّار الباقين فيها دون فراق ، الخالدين فيها دون خروج والعياذ بالله . وقد قال عزّ من قائل [1] : «إنّ الّذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلّما نَضِجَتْ جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً» .

(١) سورة النّساء ٥٦

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

مثل : صفة .

فيها صرّ : قال ابن عبّاس : ريحٌ فيها صرّ قال : بردٌ شديدٌ وزمهرير (١)

حرث قوم : زرع قوم (٢) قال ابن زيد : ريحٌ فيها صرّ باردة أهلكت حرثهم . قال : والعرب تدعوها الضّريب . تأتى الرّيح باردة فتصبح ضريباً قد أحرق الزّرع . تقول : قد ضرب اللّيلة ، أصابه ضريب تلك الصّرّ الّتى أصابته (٣)

ويقول الطّبريّ (٤) : «وأمّا الصّرّ فإنّه شدّة البرد وذلك بعصوفٍ من الشّمال فى إعصار الطّلّ والأنداء فى صبيحةٍ معتمة بعقب ليلةٍ مصحية» (٥) .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الّذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ولن تنفعهم شيئاً يوم القيامة . وهذه الآية الكريمة التّالية تتجاوز مرحلة نفي النّفع إلى مرحلة جلب الضّرّ وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً وكأن الآية الكريمة تتجاوز مرحلة الكفر الّتى أشارت إليها الآية الكريمة السّابقة إلى مرحلة الصّدّ عن سبيل الله تعالى ، وتتجاوز المرحلة الّتى أشارت إليها هذه الآية الكريمة مثلًا من سورة الفرقان (٦) : «وقدمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا» إلى المرحلة التى أشار إليها مثل قوله تعالى فى سورة الأنفال (٧) :«إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرةً ثمّ يُغْلبون . والّذين كفروا إلى جهنّم يُحْشرون . ليميز الله الخبيث من الطّيب ويجعلَ الخبيث بعضَه على بعضٍ فيركُمَهُ جميعاً فيجعَلَهُ فى جهنّم . أولئك هم الخاسرون» .

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٩ وتفسير ابن كثير ١ /٣٥٧
(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٨ وتفسير ابن كثير ١ /٣٩٧
(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٩
(٤) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٩
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٩
(٦) الآية ٢٣
(٧) الآية ٣٦ ، ٣٧

والآية الكريمة تقرّر أنّ مثل ماينفق أولئك الكافرون فى هذه الدنيا وصفته بقصد الصدّ عن سبيل الله تعالى ، وقد دلّ على ذلك القول فى عجز الآية الكريمة : «وماظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» كمثل ريح . والملاحظ أنّ لفظة ريح فى القرآن الكريم فى صيغة المفرد تقترن بالعذاب كما هو الحال هنا إلّا إذا كانت طبيعة الرّحمة تقتضى صيغة المفرد وفى هذه الحال تجيء القرينة الصّارفة إلى هذا المعنى كوصف الرّيح بكونها طيّبة فى الآية الكريمة من سورة يونس . قال تعالى [1] : «هو الّذى يسيّركم فى البرّ والبحر حتّى إذا كنتم فى الفُلْك وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دعَوُا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين» والملاحظ كذلك أنّ لفظة رياح فى القرآن الكريم فى صيغة الجمع تقترن بالرّحمة لأنّ المطر وليد مجموعة من الرّياح ، بخلاف ريح العذاب الواحدة .

ولا تكتفى الآية الكريمة بلفظة الرّيح المفردة الدّالّة على شدّة الرّيح العاصف ، إنّما تتجاوز ذلك إلى وصف هذه الرّيح بأنّ فيها صِرّاً ، برداً شديداً وزمهريراً ، فأصابت حرث القوم الظّالمين ، زروعهم وثمارهم فأهلكته . إنّ أصحاب الزّرع الظّالمين الّذين فلحوا وحرثوا وزرعوا ورجوا الخير وانتظروا الثّمر قد أهلكت الرّيح الّتى فيها الصّرّ ذلك الزّرع وأتت عليه ، فذهبت أعمالهم أدراج الرّياح ومضت سدىً .

وإن الكافرين الّذين أنفقوا أموالهم فى أوجه البرّ قد جعلها الله تعالى هباءً منثوراً بسبب كفرهم ، والّذين أنفقوا أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى قد جعلها الله تعالى عليهم حسرةً يوم القيامة .

إنّ ثواب الأعمال وثمار الزّرع قد ذهب كلٌّ منهما أدراج الرّياح بسبب ظلم كلٍّ من الفريقين نفسه بسبب كفره . وإنّ الإنفاق الّذى رجوا ثوابه قد حلّ عقابه ، وإنّ الزّرع الّذى رجوا ثمره وقد دنا حصاده قد ذهب ثمره وخضرته ونضرته ، وبقي خشبه الجديب ومنظره الكئيب وندم أصحابه الشّديد .

إن القوم أصحاب الحرث ظالمون ، وإنّ الكافرين ظالمون ، وقد عاقب الله سبحانه وتعالى كلًّا من الفريقين الظّالمين بإهلاك الحرث فى حقّ الأوّلين ، وبجعل الأعمال الصّالحة فى حقّ الأخيرين هباءً منثورا ، بسبب كفرهم ، وزيادتهم عذاباً فوق العذاب بسبب صدّهم عن سبيل الله تعالى .

(١) سورة يونس ٢٢

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

بطانة : بطانة الرّجل هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخل أمره [١] وإنّما جعل البطانة مثلًا لخليل الرّجل فشبّهه بما ولي بطنه من ثيابه لحلوله منه فى اطّلاعه على أسراره ومايطويه عن أباعده ، وكثيرٍ من أقاربه محلّ ما ولي جسده من ثيابه [٢] .

من دونكم : من غيركم من أهل الأديان [٣] ومن دون أهل دينكم وملّتكم يعنى من غير المؤمنين [٤]

لايألونكم خبالًا : لا يدعون جهدهم فيما أورثكم الخبال [٥] بل يسعون فى مخالفتكم ومايضرّكم بكلّ ممكن [٦] وأصل الخبل والخبال الفساد ، ثمّ يستعمل فى معانٍ كثيرة ، يدلّ على ذلك الخبر عن النّبيّ ﷺ : من أصيب بخبل أو جراح [٧] .

ودّوا ماعنتم : ودّوا مايعنت المؤمنين ويحرجهم ويشقّ عليهم [٨] ويقول الطّبريّ [٩] : «وأمّا قوله : ودّوا ماعنتّم فإنّه يعنى ودّوا عنتكم . يقول : يتمنّون لكم العنت والشّرّ فى دينكم ومايسوءكم ولا يسرّكم» .

إن كنتم تعقلون : يعنى إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم ومبلغ عائدته عليكم [١٠] .

(١) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٨
(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٩
(٣) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٨
(٤) تفسير الطّبريّ ٤ /٣٩
(٥) انظر تفسير الطّبريّ ٤ /٤٠
(٦) انظر تفسير ابن كثير ١ /٣٩٨
(٧) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٠
(٨) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٨
(٩) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٠
(١٠) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٠

سبب النزول :ـــ

«وذكر أنّ هذه الآية نزلت فى قومٍ من المسلمين كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النّفاق منهم ويصافونهم المودّة بالأسباب الّتى كانت بينهم فى جاهليّتهم قبل الإسلام فنهاهم الله عن ذلك وأن يستنصحوهم فى شيءٍ من أمورهم .... عن ابن عبّاس قال : كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالًا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهليّة فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم فنهاهم عن مباطنتهم تخوّف الفتنة عليهم منهم : يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم إلى قوله : وتؤمنون بالكتاب كلّه» (١) .

تنهى الآية الكريمة بصريح اللّفظ المسلمين فى كلّ زمانٍ ومكان عن أن يتخذوا من غير المسلمين بطانةً يطلعونهم على أسرارهم ويوقفونهم على حقيقة دخائلهم .

إنّ هذه البطانة بنص القرآن الكريم يجب أن تكون من المسلمين . وتبيّن الآية الكريمة السّبب وراء النّهي عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين وهو أنّ غير المسلمين من اليهود والنّصارى والمشركين والمنافقين لا يدّخرون وسعاً فى سبيل إلحاق العنت بالمسلمين وإنزال المشقة بهم ، بل يبذلون قصارى جهدهم ومنتهى وسعهم وبما يستطيعون من مكرٍ وخديعة فى سبيل إلحاق صنوف الأذى والبلاء بالمؤمنين ، إنّ هذا مايجتهدون فى سبيل الوصول إليه إن استطاعوا ، وإنّ هذا مايتمنّون إلحاقه بالمؤمنين حينما تواتيهم الفرصة .

وتعطى الآية الكريمة المؤمنين الدّليل الّذى يلمسونه هم أنفسهم . وهذا الدّليل مأخوذٌ من فلتات ألسنة القوم ، فى أثناء حديثهم مع المسلمين ، الدّالّة على منتهى البغض الّذى يكنّونه للمسلمين والعداوة الّتى تغلى فى صدورهم . والآية الكريمة تقرّر أنّ ماتخفى صدور القوم من عداوةٍ للمسلمين أكبر ممّا يجرى على ألسنتهم فى هيئة فلتات اللّسان أو في هيئة التّلميح بالبغضاء أو حتّى التّصريح . إنّ ماتخفى صدورهم أكبر من كلّ تلميحٍ بالعداوة أو تصريح .

وفى الجزئيّة الأخيرة يأتي التّحذير الضّمنيّ للمسلمين إن هم لم يستفيدوا من الآيات البيّنات الّتى جاءت فى القرآن الكريم ، وإن هم لم يستعملوا عقولهم استعمالًا صحيحاً فاتّخذوا من غير المسلمين بطانةً يوقفونها على أسرارهم وما تكنّه ضمائرهم . أمّا المؤمنون الّذين ينتفعون من تبيين الله سبحانه وتعالى الآيات ويستعملون عقولهم استعمالًا صحيحاً فإنّهم يتّخذون بطانتهم من المسلمين وحدهم .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤ / ٤٠

«روى البخاريّ والنّسائيّ وغيرهما .... عن أبى سعيدٍ أنّ رسول الله ﷺ قال : مابعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلّا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضهُ عليه ، وبطانة تأمره بالسّوء وتحضّه عليه . والمعصوم من عصمه الله» [1] و «قيل لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه : إنّ ههنا غلاماً من أهل الحيرة . حافظ كاتب . فلو اتّخذنه كاتباً . فقال : قد اتّخذت إذاً بطانةً من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليلٌ على أنّ أهل الذّمّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة الّتى فيها استطالةٌ على المسلمين واطلاعٌ على دواخل أمورهم الّتى يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب » [2]

هَـٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

ها أنتم أولاء : ها أنتم ياهؤلاء .
وتؤمنون بالكتاب كلّه : وتؤمنون بالكتب السّماوية كلّها [3]
وإذا خلوا : وإذا هم خلوا فصاروا فى خلاءٍ حيث لا يراهم المؤمنون [4]
الأنامل : جمع أنملة ، وهي أطراف الأصابع [5] .

الآية الكريمة استمرارٌ للآية الكريمة السّابقة الّتي تنهي المؤمنين عن اتّخاذ غير المؤمنين بطانة يطلعونهم على أسرارهم ويأمنونهم عليها . وهاهي ذى الآية الكريمة تنبّه المؤمنين بالقول «ها أنتم» وتخاطبهم بالقول : «أولاء» والمعنى يا أولاء تحبّون القوم بسبب القرابة والصّداقة فى حقّ المنافقين وبسبب الجوار والحلف فى حقّ اليهود ، بينما القوم لايحبّونكم . وتؤمنون بالكتب السّماوية كلّها ، بالقرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبالكتب السّماويّة السّابقة ومنها التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام ،

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٩٨
(٢) تفسير ابن كثير ١ /٣٩٨ حافظ كاتب هكذا النّصّ
(٣) انظر تفسير الطّبريّ ٤ /٤٢
(٤) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٣
(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٣

والإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام ، بينما هم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها ، وفى مقدّمة مايكفر به جميعهم القرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى على نبيّكم محمّد ﷺ . وهم وراءَ ذلك جميعاً منافقون ، إذا لقوكم قالوا آمنّا بالقرآن الكريم وبالرّسول العظيم وإذا خلوا إلى أنفسهم أو إلى شياطينهم فلم يرهم المؤمنون أظهروا الكفر الّذى أبطنوه أمامكم وعضوا عليكم رءوس أصابعهم لفرط ندمهم على ائتلافكم وجمع شملكم واتّحاد كلمتكم ومحبّة بعضكم بعضاً وتعاونكم على البّر والتّقوى .

والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ ، وإنّ أمته تبعٌ له فى ذلك ، بأن يدعو الله تعالى عليهم بأن يبقى عليهم أسباب الغيظ وأن يشدّ من وطأته عليهم باتّحاد المسلمين وائتلافهم حتّى يموتوا بغيظهم . وإنّ الدّعاء عليهم بالموت غيظاً يصح أن يفهم منه موتهم العاجل بسبب شدّة وطأة الغيظ عليهم ، ويصحّ أن يفهم منه موتهم الآجل بسبب استمرار الغيظ لبقاء أسبابه بكون المسلمين إخوةً متحابين .

وتقرّر الآية الكريمة فى تذييلها أنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بذات الصّدور ، وماتكنّه الضمائر ، وتخفيه النّفوس ، وتنطوى عليه القلوب ، ومن ذلك مايضمره أعداء الإسلام من سوءٍ للمسلمين رغم حبّ المسلمين للقوم وإيمانهم بالكتب السّماوية كلّها .

والآية الكريمة تعرض لمظهرٍ من مظاهر نفاق كلٍّ من الكافرين وأهل الكتاب . وبذلك هى تأخذ بسببٍ من قوله تعالى عن المنافقين فى سورة البقرة [1] :«وإذا لقُوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون» وبسببٍ من قوله تعالى عن منافقى بنى إسرائيل فى سورة البقرة [2] أيضاً : «وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوّكم به عند ربّكم أفلا تعقلون» .

(١) الآية ١٤
(٢) الآية ٧٦

وهكذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة معمّقةٌ لنهي الآية الكريمة السّابقة المؤمنين عن اتّخاذ غير المؤمنين بطانةً يوقفونهم على أسرارهم . ووراء ذلك لاينهانا الله سبحانه وتعالى عن الّذين لم يقاتلونا فى الدّين ولم يخرجونا من ديارنا أن نبّرهم ونقسط إليهم . قال تعالى(١) : «لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إنّ الله يحبّ المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم . ومن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون» .

إنّ البرّ والقسط لغير المسلمين شيء . وإنّ اتّخاذ غير المسلمين بطانة شيءٌ آخر . إنّ النّهي عن اتّخاذ غير المسلمين بطانةً نهيٌ حتميٌّ ونهائيّ .

(١) سورة الممتحنة ٨،٩

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

كيدهم : غوائلهم الّتى يبتغونها للمسلمين ومكرهم بهم ليصدّوهم عن الهدى وسبيل الحقّ (١) .

تسير الآية الكريمة على غرار الآية الكريمة السّابقة فى تقديم الأدلّة والمزيد من البراهين تجاه نهي المؤمنين عن اتّخاذ بطانةٍ من غير المؤمنين . والآية الكريمة تبيّن للمؤمنين بصريح اللّفظ أنّ أيّ حسنةٍ تمسّ المسلمين ولو كان المسّ رفيقاً من انتصار على عدوّ أو عودةٍ مظفّرة لسريّة أو دخولٍ للنّاس فى دين الله تعالى أفواجاً أو وفاقٍ بين المؤمنين ووئامٍ وما إلى ذلك فإنّ ذلك المسّ يسوء خصوم الإسلام من يهود ومنافقين ومشركين ، هذا إذا نظرنا إلى سبب نزول الآية الكريمة ، ومن كلّ المخالفين للمسلمين فى الدّين إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية عموم اللّفظ وليس من زاوية خصوص السّبب ، وهذه النّظرة الثانية هي الأَوْلى وهي الّتي تزيدها التّجارب ثباتاً ورسوخاً . إنّ مجرّد المسّ من الحسنة للمسلمين يسوء الخصوم . وما الّذى يفرحهم فى المقابل ؟

الذى يفرح خصوم الإسلام أن تصيب المسلمين سيّئة من هزيمةٍ ـــ لاسمح الله تعالى ـــ كالّذى حصل فى يوم أحد وقتلٍ وأسر وجدبٍ وما إلى ذلك . وانظر إلى الجملة الّتى تستعمل فى السّيّئة مقابل مسّ الحسنة : «وإن تصبكم سيّئة» إنّ جملة «تصبكم» مرتبطة بالإصابة المباشرة والتمكّن من الهدف والتّغلغل فى أعماقه . وانظر إلى الجملة الّتى تستعمل فى ردّ الفعل لدى خصوم الإسلام مقابل استيائهم لمسّ الحسنة : «وإن تصبكم سيّئةٌ يفرحوا بها» إنّ ردّ الفعل لدى خصوم الإسلام لما يصيب المسلمين من مصيبةٍ أو مصائب هو الفرح . وكلّما كانت المصيبة كبيرة والجرح عميقاً غوره كان فرح خصوم المسلمين شديدا . فهل يستحقّ مثل هؤلاء أن يتّخذهم المسلمون بطانةً أو أولياء من دون المؤمنين ؟ الجواب معروف بطبيعة الحال إنّهم لا يستحقّون إلّا أن يتحاشاهم المؤمنون ويتوقّوا شرورهم .

(١) تفسير الطّبرى ٤ / ٤٤

وما المطلوب من المؤمنين وهم الّذين يندسّ بينهم منافقون ويقترب منهم منافقو أهل الكتاب وكافروهم ؟ أن يصبروا ويتّقوا ويتوكّلوا على الله تعالى ويأتمروا بأوامره جلّ وعلا وينتهوا عمّا نهوا عنه . وفى مقابل الصّبر والتّقوس يعدهم الله تعالى ووعده الحقّ بأنّ كيد الخصوم لن يضرّ المؤمنين الصّابرين الّمتقين شيئاً : « وإن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً »

وتقرر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة أنّ الله محيطٌ بما يعمل خصوم الإسلام وبما ينوون من شرور للإسلام وأهله فالله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السّماء وسيجزى كلاً من المحسن والمسيء بحسب نيّته وعمله : « إنّ الله بما يعملون محيط »

ويتحوّل السّياق إلى الحديث عن أحدى المصائب العظام الّتى ابتلى الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى غزوة أحد ، والمعروف أنّ فرح الخصوم بانهزام المسلمين ليس عليه من مزيد ، وهذا تطبيقٌ عمليّ لفرح الخصوم تجاه المصيبة الّتى تصيب المسلمين والسيّئة الّتى تنالهم ، ودرسٌ عمليّ إثر الدّرس النّظريّ فى الآيات الكريمة السّابقات كي يأخذ المسلمون حذرهم وكي يستفيدوا من هذه الدّروس القرآنيّة الّتى بيّنها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز للّذين آمنوا إن كانوا يعقلون .

دَرْسُ أُحُدْ

الآيات ١٢١ - ١٨٠

غـــزوة أحـــد

أنزل الله سبحانه وتعالى من القرآن الكريم فى غزوة أحد ستّين آية من سورة آل عمران ، فيها صفة ما كان فى يومهم ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم (١) وكانت غزوة أحد يوم السّبت للنّصف من شوّال سنة ثلاثٍ من الهجرة (٢)

سـبب الغـزوة :

نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين نصراً مؤزّراً فى يوم بدرٍ على مشركي قريش . وكان يوم بدر يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رمضان المبارك فى السّنة الثّانية من الهجرة . وهذا النّصر المؤزّر والغنيمة العظيمة إحدى الطّائفتين اللّتين جاءت الإشارة إليهما فى قوله تعالى من سورة الأنفال (٣) :« وإذ يعدكم الله إحدى الطّائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين » وقد تحقّق النّصر للمسلمين بقيادة المصطفى ﷺ رغم قلّتهم فى العدد والعُدّة ، وصدق الله سبحانه وتعالى وعده للمؤمنين . وإذا كانت إحدى الطّائفتين النّفير بمعنى النّصر على الأعداء وقد تحقّق ، فإنّ الطّائفة الأخرى هي العير ، وقد نجت بقيادة أبى سفيان . وبما أنّ قريشاً قد قُتِل منها فى بدرٍ سبعون وأسر سبعون فقد صمّمت . وهي الموتورة ، على الأخذ بالثّأر . فرصدت أموال القافلة الّتى نجت لتعبئة الجيوش من أجل قتال المسلمين . واستعانت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة (٤) فكان لها جيشٌ قوامه ثلاثة آلاف مقاتل (٥) ومعهم مائة فرسٍ (٦) فاتّجه الجيش إلى المدينة المنوّرة حتّى نزل قريبا من أحد تلقاء المدينة (٧) وكان وصولهم يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم ويوم الخميس يوم الجمعة حتّى راح رسول الله ﷺ إليهم يوم الجمعة بعد ما صلّى بأصحابه فأصبح بالشّعب من أحد يوم السّبت للنّصف من شوّال (٨)

(١) انظر السّيرة النّبوية لابن هشام ٣ /٥٨

(٢) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٢ وتفسير ابن كثير ١ /٣٩٩

(٣) الآية ٧

(٤) انظر السّيرة النّبويّة ٣ /٤

(٥) انظر تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠

(٦) انظر تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠

(٧) انظر تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠

(٨) تفسير الطبرىّ ٤ /٤٦

درس في الشورى والعزم المتوكل على الله

على عادته ﷺ شاور أصحابه وقال : إنّى قد رأيت والله خَيْراً رأيت بقراً تُذّبح ، ورأيت فى ذُباب أ(١) سيفى ثَلْماً ، ورأيت أنّى أدخلت يدى فى درعٍ حصينة فأوّلتها المدينة ... فأمّا البقر فهي ناسٌ من أصحابى يقتلون . وأمّا الثّلم الّذى رأيت فى ذُباب سيفى فهو رجلٌ من أهل بيتى يقتل ... فإنّ رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام ، وإن هُمْ دخلوها علينا قاتلناهم فيها . وكان رأي عبدالله بن أبيّ ابن سلول مع رسول الله ﷺ (٢)

ولّما كان الكثير من الصّحابة رضوان الله تعالى قد فاتهم يوم بدرٍ يوم الفرقان لأنّهم لم يكونوا يعلمون بأنّ المسلمين سيقاتلون الكافرين ولأنّ الخروج إلى بدرٍ كان اختياراً ، ولمّا كان الكثير من الصّحابة يتمنّى الشهادة فقد كان رأي الأكثريّة على هذا النّحو الّذى بيّنته السّيرة النّبوية(٣) :« يا رسول الله اخرج بنا إلى اعدائنا لا يَرَوْن أنّا جبُنّا عنهم وضَعُفْنا » فدخل المصطفى ﷺ ودعا بدرعه فلبسها ثمّ خرج عليهم وقد ندم النّاس وقالوا : استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك . فلمّا خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله : استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ ما ينبغى لنبيّ إذا لبس لأمته (٤) أن يضعها حتى يقاتل (٥) .

(١) ذباب السّيف : حدّه

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٧٠٦

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٧

(٤) اللّأمة : الدّرع . وقد يسمّى السّلاح كلّه لأمة .

(٥) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٨٠٧ وتفسير الطّبرىّ ٤ /٤٦

[نّ المصطفى ﷺ النّبيّ الموحى إليه يستشير أصحابه وينزل على رغبتهم وبذلك يلقى ﷺ علينا نحن المسلمين درساً عظيماً فى الشّورى وقد قال تعالى (١) : «وأمرهم شورى بينهم» أما وقد ارتأت أغلبيّة الصّحابة رأياً معيّناً فإنّ المصطفى ﷺ النّبيّ الموحى إليه يتبنّى هذا الرّأي ويترجمه إلى عمل ولا يسمح بالتّراجع عن الرّأي الّذى ارتضته الجماعة أوّلًا حتّى ولو كان التّراجع إلى الرّأي الّذى ارتآه المصطفى ﷺ . لقد انتهى دور الشّورى بالاستقرار على رأي ، وجاء دور العزم المتوكّل على الله تعالى ، وهذا درسٌ آخر يلقيه علينا المصطفى ﷺ نحن المسلمين . وإنّ درس الشّورى ودرس العزم المتوكّل على الله تعالى مستفادان من هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران ، وهي إحدى الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن غزوة أحد والدّرس المستفاد منها . قال تعالى (٢) : «فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحب المتوكّلين»

(١) سورة الشّورى ٣٨

(٢) سورة آل عمران ١٥٩

واتّجه المصطفى ﷺ على الفور فى ألفٍ من أصحابه إلى ميدان المعركة (١)من طريقٍ لا يمرّ بهم على المشركين (٢) حتّى إذا كان ﷺ بالشّوط ـــ بين المدينة وأحد ـــ انخزل عنه عبدالله بن أبيّ ابن سلول بثلث النّاس وقال : أطاعهم وعصانى ، ماندرى علام نقتل أنفسنا هٰهنا أيها النّاس . فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النّفاق والرّيْب (٣) واستمرّ رسول الله ﷺ سائراً حتّى نزل الشّعب من أحد عدوة الوادى (٤)

خطة عسكريّة ناجحةٌ بل خطّتان

لعلّك تريد أن تعرف الخطّة العسكريّة الثّانية النّاجحة قبل أن تقف على الخطّة العسكريّة الأولى ، لأنّ المتبادر أن فى غزوة أحد خطّةً واحدة لا خطتين . أمّا هذه الخطّة العسكريّة الثّانية فهي البقاء فى المدينة وقد أراد النّبيّ ﷺ تطبيقها فى أحد لولا أنّ جمهور الصّحابة ارتأى الخروج إلى الأعداء ، فلم يتمكّن عليه الصّلاة والسّلام من تطبيقها فى أحد ، ولكنّه عليه الصّلاة والسّلام طبّقها فى غزوة الأحزاب بعد ذلك سنة خمسٍ من الهجرة وقد ثبت أنّها خطّةٌ عسكريّة ناجحة . والآن مع الخطّة العسكريّة الأولى النّاجحة أيضاً .

جعل المصطفى ﷺ ظهره وعسكره إلى أحد وقال : لا يقاتلنّ أحدٌ حتّى نأمره بالقتال . وتهيّأ رسول ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه . وأمّر على الرّماة عبدالله ابن جبير أخا بنى عمرو بن عوف والرّماة يومئذٍ خمسون رجلًا فقال لهم : انضحوا الخيل عنّا ولا نؤتينّ من قبلكم . الزموا مكانكم إن كانت النّوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطّير فلا تبرحوا مكانكم . وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين . وأعطى اللّواء مصعب بن عمير أخا بنى عبدالدّار .... وتهيّأت قريش وهم ثلاثة آلاف . ومعهم مائة فرسٍ قد جنبوها (٥) ويقال إنّ معهم مائتى فرس ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، ودفعوا اللّواء إلى بنى عبدالدّار (٦)

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠
(٢) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٩
(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٨
(٤) تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠ .
(٥) جنبوها : قادوها .
(٦) انظر تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /١٠،١١

قال ابن إسحاق .... عن الزّبير أنّه قال : والله لقد رأيتُني أنظر إلى خَدَم [1] هند بنت عتبة وصواحبها مشمّراتٍ هوارب مادون أخذهنّ قليلٌ ولا كثير إذ مالت الرّماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلّوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا وصرخ صارخ : ألا إنّ محمّداً قد قُتِل فانكفأنا [2] وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللّواء حتّى مايدنو منه أحدٌ من القوم [3]

وهكذا تحوّل النّصر بإذن الله تعالى إلى هزيمةٍ بإذن الله تعالى وذلك بسبب عصيان الرّماة أمر رسول الله ﷺ وقد جاء فى سورة آل عمران [4] قوله تعالى : :«ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبّون ....» تحسّونهم بمعنى تقتلونهم . قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسّوهم بالسّيوف حتّى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لاشكّ فيها [5]

قال ابن إسحاق : وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدوّ ، وكان يوم بلاءٍ وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشّهادة حتّى خلص العدوّ إلى رسول الله ﷺ فدُثَّ [6] بالحجارة حتّى وقع لِشِقّه ، فأصيبت رَباعيَتُه [7] وشُجَّ فى وجهه ، وكُلِمَت شفتُه [8]

(١) الخدم جمع خدمة ، وهي الخلخال ، يعنى أنّهنّ شمّرن للهرب فبدت خلاخيلهنّ .
(٢) انكفأنا : رجعنا .
(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٢٤
(٤) الآية ١٥٢
(٥) السيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٢٤
(٦) فدثّ بالحجارة ، بالدّال المهملة : رُمي بالحجارة حتّى التوى بعض جسده .
(٧) المراد رباعيته اليُمنى السُّفلى ، السيرة ٣ /٢٧ .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

تبوّىء المؤمنين : تتّخذ لهم مقاعد ومنازل وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم (١) .
مقاعد : جمع مقعد وهو المجلس (٢)

هذه أولى الآيات الستّين من سورة آل عمران الّتى تتحدّث عن غزوة أحد (٣)وإنّ ربّ العزّة ليخاطب المصطفى ﷺ قائلًا : واذكر يا محمّد إذ غدوت من أهلك وأخذت غداة يوم أحد تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال ، وتتّخذ لهم أماكنهم فى صفوف الجيش ، وتعيّن لهم مواضعهم فى ميدان المعركة ، والله سبحانه وتعالى سميعٌ لما يقال عليمٌ بما يُفعل ويُنْوى . يقول ابن إسحاق (٤) : «ومضى رسول الله ﷺ حتّى نزل الشّعب من أحد فى عُدْوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحدٍ وقال : لا يقاتِلنّ أحدٌ منكم حتّى نأمره بالقتال .... وتعبّى رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة رجل ، وأمّر على الرّماة عبدالله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو مُعْلَم يومئذٍ بثياب بيض ، والرّماة خمسون رجلًا فقال : انضح الخيل (٥) عنّا بالنّبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتيّن من قِبلك .

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ودفع اللّواء إلى مصعب بن عمير أخى بنى عبدالدّار»

وقد بيّن ابن جريرٍ فى تفسيره (٧) أنّ خروج النّبيّ ﷺ إلى أحد كان يوم الجمعة بعد الصّلاة أمّا غدوّه ﷺ ليبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال إنّما كان يوم السّبت أوّل النّهار (٨)

(١) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٨ وتفسير ابن كثير ١ /٤٠٠
(٢) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٧
(٣) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٨
(٤) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /١٠
(٥) انضح الخيل : ادفع الخيل
(٦) ظاهر بين درعين : لبس درعاً فوق درع .
(٧) انظر تفسير الطّبريّ ٤ /٤٦
(٨) انظر تفسير تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

إذ بدل من إذ فى الآية الكريمة السّابقة : «وإذ غدوت»

طائفتان منكم : الطّائفتان بنو سلمة «بكسر اللّام» بن جشم بن الخزرج وبنو حارثة بن النّبيت من الأوس وهما الجناحان (١) قال البخارى : حدثنا على بن عبدالله حدثّنا سفيان قال : قال عمر سمعت جابر بن عبدالله يقول : فينا نزلت : إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا . الآية . قال : نحن الطّائفتان بنو حارثه وبنو سلمة ومانحبّ ـــ وقال سفيان مرّة ـــ ومايسرّنى أنّها لم تنزل لقوله تعالى : والله وليّهما . وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به ، وكذا قال غير واحدٍ من السّلف إنّهم بنو حارثة وبنو سلمة (٢) عن السّدّيّ قال : خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن صبروا ، فلمّا رجع عبدالله بن أبيّ ابن سلول فى ثلاثمائة فتبعهم أبوجابر السّلمّي يدعوهم فلمّا غلبوه وقالوا له ما نعلم قتالًا ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا وقال : إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا وهم بنو سلمة وبنو حارثة همّوا بالرّجوع حين رجع عبدالله بن أبيّ فعصمهم الله وبقي رسول الله ﷺ فى سبعمائة (٣)

قال ابن إسحاق ..... وأتبعهم عبدالله بن حَرام أخو بنى سَلِمة يقول : ياقوم أذكّركم الله ألّا تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حضر من عدوّهم فقالوا : لو نعلم أنّكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنّا لا نرى أنّه يكون قتال .

قال : فلمّا استعصَوْا عليه وأبوا إلّا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداءَ الله فسَيُغْنى الله عزّ وجلّ عنكم نبيّه ﷺ (٤)

أن تفشلا : أن تضعفا وتجبنا عن لقاء عدوّهما (٥) قال ابن عبّاس : الفشل الجبن (٦)

والله وليّهما : أي المدافع عنهما ماهمّتا به من فشلهما ، وذلك أنّه إنّما كان ذلك منهما عن ضعفٍ ووهَنٍ أصابهما ، من غير شكٍّ فى دينهما ، فتولّى دفع ذلك عنهما برحمته وعائدته حتّى سلمتا من وهنهما وضعفهما ولحقتا بنبيّهما ﷺ (٧)

(١) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٨ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٨

(٢) تفسير ابن كثير ١ /٤٠٠

(٣) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٨

(٤) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٨

(٥) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٨

(٦) تفسير الطّبريّ ٤ /٤٨

(٧) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣ /٥٨ وتفسير الطّبريّ ٤ /٤٨